

رد الدكتور طه حسين

حديث الأربعاء

في تنظيم الثقافة

كان ظريفاً ممتعاً هذا الفصل الذي نشرته الوادى مساء الاحد
 الماضى لسكاتب الاديب « عبد المطلبى المسيرى بدمهور » يجادلنى
 فيه حول ما كتبتة فى نقد الشعراء ، وفى ثقافة الادباء وقراءهم ،
 وأشهد أنى قرأت هذا الفصل مرتين ، قرأته قبل أن آذن بنشره ثم قرأته
 الآن قبل أن آخذ فى كتابة هذا الفصل ، ووجدت فى قراءته مرتين
 لذة قوية ، ومتاعاً خصباً ، وأحسست إعجاباً عظيماً بهذا الرجل الذى
 تقف نفسه كما استطاع ، لم يختلف الى مدرسة ولم يجلس الى استاذ ،
 ولم يستمع من معلم ، وإنما تعلم القراءة والكتابة فى السوق وأخذ
 يقرأ ما يذاع فى العامة من هذا الادب العامى اليسير ، ثم أخذ يرقى
 شيئاً فشيئاً حتى قرأ المكتاب المصرين المعاصرين ثم الادباء القدماء
 من العرب ثم ما نقل الى العربية من آثار الغربيين ، وهو الآن على
 كثرة عمله ، وثقل أعباء الحياة عليه واتصال جده فى سبيل الحياة
 تضع عشرة ساعة لا يستطيع ان يستقبل النهار ، ولا ان يستقبل الليل

الاقارنًا كاتبًا ، وناقداً مفكراً كل هذا خليق بالاعجاب ؛ وكل
 هذا خليق ان يزيل اليأس من نفوس الذين يشفقون علي هذا الجيل
 ان يكون حظه من الرقي العقلي ضئيلاً ، وكل هذا خليق ان يحملني
 علي أن أهنيء هذا الكاتب الاديب تهمة صادقة بهذا الجهد الخصب
 المتصل ، وبهذا التوفيق العظيم الذي اتيح له وعلى ان اتخي أن أرى
 كثيرين بين أهل المدن والقرى وبين أهل القاهرة ينهبون نهجه
 ويسيرون سيرته وينتمون الي مثل ما انتهى اليه من الفسوس وهو يذكر
 الهيئة قراطية في مقاله ويمتد عن التحدث الي ويجد شيئاً من الحرج في هذا
 التحدث . فأحب أن يعلم أني لا أجد لذة في شيء من الاشياء
 كهذه اللذة التي وجدتها في حديثه ، وفي الشعور بأن المصرين
 يستطيعون في هذا العصر الحديث ، ان يتقفوا انفسهم ، وأن يلبسوا
 من الثقافة مثل هذا الحظ الذي بلغه ، . فقد كان هذا ممكناً ما لوفاني
 المصور القديمة ، حين لم تكن توجد المدارس المنظمة ؛ والبرامج
 المرسومة ، وحين لم تكن الدول تسيطر هلى شؤون الثقافة والتعليم
 وتقيسهما بمقياس الشهادات والاجازات وحين لم تكن الحضارة
 الاجتماعية قد استطاعت ان تلغى ارادة الفرد ، وان تضيقها ، وأن
 تعود الافراد ان يعتمدوا على التعليم المنظم المهيب ، الذي يقدم اليهم في
 المدارس كما يقدم الطعام الي الاطفال ، أما الآن فقد اصبح اعتماد الفرد
 على نفسه ضئيلاً في الدرس والتحصيل ضئيلاً في الحفظ والاستظهار

ضئيلاً في جميع فروع الحياة المادية كلها ، واصبح من النادر جداً أن تجد رجلاً يعتمد على ذاكرته وعنده القلم والدقتر ، أو يعتمد على نفسه في التعلم وعنده المدارس ومن فيها من الأساتذة والمعلمين فلا غرابة إذن في أن نحبب بالكاتب الأديب ، وفي أن نتمنى ان يكون أمثاله كثيرين بين المصريين ، ولا غرابة في ان نجد في قراءته اللذة والمتاع ، وفي ان اهتدى اليه اجمل الشكر ، واصدق التهنيت ، وأحمد له هذه الساعة الحلوة التي اتاحها لي ، حين كتب إلى هذا الكتاب الطريف ، وليكني احب ان يفهم الكتاب الأديب ان قراءته هذه المضطربة التي لم يعتمد فيها على نظام ، ولم يتقيد فيها بمنهاج ، قد أغنته ، وأتاحت له ثروة أدبية لا بأس بها ؛ وليكنها قد أساءت اليه بعض الشيء ، فجهاته متفائلة أكثر مما ينبغي ، ودفعتة الى أن يقدر الأشياء قسراً ربما لم يكن مستقيماً في جميع الوجوه . هو قد قرأ ، وجد في القراءة ، واستفاد منها ، فيخيل اليه أن الناس كلهم يقرأون كما قرأ ، ويستفيدون كما استفاد ، وهو إذن لا يصدق ، أو لا يكاد يصدق ، أن المتعلمين والمعلمين ينفقون وقتهم في العبث والحديث وألوان الراحة ؛ لا يحفلون بالقراءة ولا يعنون بها ، لأنه هو لا يحفل إلا بالقراءة ولا يهتم إلا للقراءة ، وإذا كان هو على جهله القديم قد فعل هذا كله ، وما زال يفعله ، فهو لا يستطيع ان يؤمن بأن الذين تعلموا أو اتخذوا التعليم مهنة وصناعة يرضى أن يكون حظهم من الجهد في الدرس ، والعناية بالقراءة اقل من حظهم ،

وإذن فإدام هو يقرأ خمس صحف يومياً ، ومجنتين في كل يوم ،
وما دام لا يصبح إلا مع كاتب أو شاعر ، ولا يمسي إلا مع عالم أو أديب
ولا يجلس إلى مائدته إلا وحوله جماعة من اصحاب الفكاهة والنقد
اليسير ؛ ففسيره من المتعلمين خليق أن يقرأ عشر صحف ، واربع
مجلات ، وأن يصبح مع كتاب أو شعراء ، ويمسي مع علماء أو أدباء
ويجمع حول مائدته أصنافاً من النقاد واصحاب الفكاهة ، واكبر
الظن أن الكاتب الأديب لم يفارق دمنهور ، ولم يزر القاهرة
والاسكندرية ، أو لم يزرها الا لماماً ، ولو أنه تردد عليهما ، واقام فيهما
واختلفت بعض الشئ ، الى ما يقوم فيهما من الاندية والقهوات ،
واتصل من قريب أو بعيد بمن يعيش فيهما من المتعلمين والمعلمين
لأشفقت عليه أن يناله شئ غير قليل من الاعجاب بنفسه حين يقيس
سيرته الى سيرة المتعلمين في المدارس النظامية ، وحين يوازن بين ما
حصل وما حصلوا ، وبين الوقت الذي ينفقه في الجد والكد ، وبين الوقت
الذي ينفقونه في الراحة والعبث والحديث ، ولأشفقت عليه أن يبلغ
اليأس الى قلبه البرى ، ويصل الحزن الأدبي الى نفسه التي يظهر
انها لم تعرف الحزن بعد ، فليطمئن الكاتب اذن الى ما حدثته به من
انصراف المستنيرين عندنا عن الثقافة ، واهتمامهم للقراءة ، وزهدهم في
التحصيل ؛ فاني لم أجدته الا بالحق ، وان كان الحق مرأ ، مؤذيا ،
وليست الشجاعة ان ننكر الحق لأنه مر ، أو نفر منه لأنه يؤذي ،

وأما الشجاعة أن نستقبل الحق كما هو ، وأن نصلح من أمرنا ما يحتاج
إلى الإصلاح ، فضعف الثقافة عندنا وضعف الميل إليها ، والرغبة فيها
والجد في تحصيلها ، أمر واقع لا سبيل إلى الشك فيه ، علي أن الأصـ
الذي أحب أن يلتفت إليه الكتاب الأديب ، وغيره من المثقفين
هو أن من الخطر حقاً أن نرضى عن أنفسنا إلى هذا الحد ، وأن نطمئن
إلى ما بلغنا من الرقي ، وما زلت أقول له وغيره من المثقفين ما قلته
للآنسة (مى) من أن الأديب الذي يستحق هذا الاسم ، والرجل
الذي يستمتع بحظ من الحياة ، خليقان أن لا يرضيا ؛ ولا يطمئنا ،
فإن الرضى والاطمئنان وسيلة الكسل وسبيل إلى الخمود ومظية إلى
الغرور والمجب ، وويل لجيل تقوم حياته على الكسل والخمود ، وعلى
الغرور والمجب ، وما دمننا نبتغى المثل الأعلى دائماً ؛ فالمثل الأعلى
شروء لا يجب أن يبالغه الناس ، ولا ينتظرهم حتى يبالغوه ؛ وإنما هو
ينأى عنهم كلما دنو منه . ويفلت منهم كلما هموا أن يدركوه لأنه
يريدهم على أن يعضوا دائماً ، ويكره لهم الوقوف ولا يجب لهم الرضى
والاطمئنان ، فهبنا بلغنا من الثقافة حظاً حسناً ، وأخذنا منها بنصيب
موفور فإن فوق هذا الحظ الحسن ، حظاً آخر أحسن منه ينبغي أن
نسعى إليه ، وفوق هذا النصيب الموفور نصيباً آخر أكثر منه خصباً
ومتاعاً ، ويجب أن نجد فيه ، والمثقفون جميعاً في أقطار الأرض
يستزيدون من الثقافة ولا يرضون بما يتاح لهم منها فلا ينبغي أن

نسكسل والناس نشيطون ، ولا أن ننام والناس ايماظ ، ولا أن نرضي
عن انفسنا والناس على انفسهم ساخطون ، ثم أحب أن يلتفت
المتفائلون جميعاً والذين يخيفهم التشاؤم في أمر الثقافة الى أن الثقافة التي
يخاف عليها من النقد ويشفق عليها أصحابها أن تفرغها لان كاتبها من
الكتاب يراها ناقصة ، أو غير مرضية ليست هي الثقافة المرضية حقا
وليست هي الثقافة القوية التي تثبت للنقد ، وتستطيع أن تتلقى
الاحداث ولا تفرغ من الخطوب وانما هي ثقافة كمنار الورق يطفئها
ايسر النسيم ، وما ينبغي أن تكون ثقافتنا بهذه المنزلة من الضعف
ولا أن تكون أشبه شي ، بالضوء الضئيل ينبعث من السراج الصغير
ولا يكاد يثبت لأيسر النسيم ؛ وبعد هذا كله أريد أن يلتفت الكاتب
وغيره من المتفائلين الى أن حياة الناس قد تغيرت منذ عهد بعيد
وأصبح من الحقائق الواقعة ان التعاليم والتثقيف من الامور الاجتماعية
التي لا تترك كلها للافراد وجهودهم الخاصة وانما تقوم الجماعة بتنظيم
مقدار منها تفرضه على الناس فرضا وتجعله شركة بينهم لانه يكون
وحدتهم العقلية والخلقية فيكون بذلك نفسه وحدتهم الوطنية
والسياسية ، وهذا المقدار المشترك من الثقافة هو الذي ينهض به التعليم
الاولى والثانوى ، فلا بد اذن من العناية بهذين النوعين من التعليم
لانهما يصوران الحد الأدنى للثقافة ، يصوران هذا المقدار الذي لا
ينبغي أن يكون فيه تفاوت ولا اختلاف بين الناس ، وما دام القانون

لا يبيح للناس ان يدعوا ابناءهم دون أن يعطوهم حظهم من التعليم الاولي ومادام القانون لا يبيح للناس ان ينهضوا بهذه العمل ، وذلك من الاعمال العامة الا اذا استكلوا أدواته وهياوا انفسهم له بما ينبغى من التعليم ، فلا بد اذن من العناية بهذا التعليم كأحسن ما تكون العناية ، ومن جعله صالحا لتكوين الرجل الذى يستحق هذا الاسم ، ولتمكينه من أن يستقبل الحياة استقبال من يفهمها فيحسن فهمها ويثبت لما استلقاه به من الاحداث والمشكلات ، فليس علينا بأس حين نلاحظ أن تعليمنا ردىء أو أن ثقافتنا ناقصة مادمتا نستطيع أن نجعل هذا التعليم خيرا مما هو الآن ؛ وأن نجعل هذه الثقافة أوسع وأعمق ، وارقي مما هي الآن ومن المحقق الذى لا شك فيه أن فساد التعليم وضيق الثقافة والاكتفاء بظواهر الامور، والعجز عن تعمقها كل هذه الخصال يدعو الى ان يكثر الغرور فى طبقات المتأدين ، ويفشو الادعاء العريض والى أن يظهر من يرى نفسه أديبا وليس هو من الادب في شيء ، ومن يرى نفسه شاعراً ، وليس هو من الشعر بسبيل ، ذلك لانه لا يجد من الناس الذين يعيشون حوله و يقرأون شعره أو نثره نقاداً مثقفين يحسنون التبصر بحاسن الشعر و عيوبه ، و بجودة النثر و رداءته ، فلا يقبلون منهما الا ما ينبغى ان يقبل ، ولا يحسنون منهما ما هو مبتذل مردول .

والكاتب الاديب يذكرنى كما ذكرنى غيره مرات بكلام

قلته أيام الصبا ونشرته لى الصحف . وكنت أراه ادبا ؛ وكنت
عنه راضيا ، وكانت الصحف تراه أدبا . وكانت تنشره إما لأنها
كانت ترضى عنه ، وإما لأنها كانت تحتاج اليه تملأ بمض انهارها
الفارغة ، والكاتب الاديب يفقد هذا الكلام ؛ كما نقده غيره ،
ويدعوني كما دعاني غيره الى أن أوازن بين هذا الكلام الذى كنت
أرسله الى الصحف منذ ربع قرن وبين ما ينشره الشباب المتأدبون
فى هذه الايام ، ويظن الكاتب الاديب كما يظن غيره أنى ان رجعت
الى ما كنت أهذى به أيام الصبا عذرت الادباء من الشباب ؛ وقد
يكون هذا حقا ، لولا أن حياة المصريين قد تغيرت منذ ربع قرن ،
وأن ما كان يقبل من الشباب ومن الشيوخ أيضا فى أول هذا القرن لا
ينبغى أن يقبل منهم الآن ، فاننا لم نقض من حياتنا خمسا وعشرين
سنة نائمين ، وانما قضيناها أيقاظا نعمل ، ونجد ونكدح ، ونبذل ما
نملك ، لنصلح من امرنا ونرقي بحظنا من العلم والادب والحضارة ،
ولا ينبغى أن تطالب منا الآن أن نرضى بما كنا نرضى به منذ خمسة
وعشرين عاما ، والفرق بين الشباب الادباء الآن وبين الشباب الادباء
فى أول القرن اننا كنا نكتب وننظم ولا نجد من النقاد من
يحاسبنا حسابا دقيقا على كل ما كنا نهذى به من النثر والنظم فكان
منا من يملؤه الغرور فيرى نفسه كاتبا ؛ أو يرى نفسه شاعرا ، لان
مقياس التفوق فى ذلك الوقت كان رضا الصحف وإذاعتها لما يرسل

اليها ، ومنا من أتبع له حظ من ذوق وتصيب من فهم ، وفتح قدرة على نفسه ، وتسلط على طبيعته فاستطاع أن يتبين أن ما كان يهذى به لغو ، وأن ما كان يرضى عنه ضرور ، فأعرض عما لم يكن يحسن الى ما كان يستطيع أن يحسنه وكذلك تستطيع أن تتببع تاريخ جماعة من الاشخاص الظاهرين في حياتنا الآن فستري أنهم كانوا في أول هذا القرن يرون انفسهم ككتابا أو شعرا يرسلون الى الصحف الفصول الطوال والقصائد التي لا تنتهي ، ثم بدا لهم فرأوا أنهم كانوا يسمون بما لم يخلقوا له ، فانصرفوا الى ما هم ميسرون له .

على هذا النحو يا سيدي تستطيع أن تنظر الى هذا الشعر الذي تذكرني به استغفر الله ، بل الى هذا النظم الذي تذكرني به ، فليس هو من الشعر في شيء ، ولو أنني وجدت في تلك الايام ناقداً يردني عن هذا السخف لضقت به بعض الشيء ، وليكني كنت خليفاً أو أحمد له شدته وحزمه ، لأنه نهى إلي ما كان يحسن أن أنبه اليه ، وصرفني عما كان ينبغي أن لا أؤمن فيه ، ومع ذلك فأنت حين تذكرني بهذا الكلام لا تسويني ، ولا تحفظني وانما تحسن الي وتصيب من نفسي موقفاً حسناً ، لانك تذكرني بتلك الايام الحلو التي كنا نجد فيها لذة النشاط والجد ، ولا نذوق فيها مرارة هذا النشاط والجد .

وأنا مؤمن بان ما ينتجه الشباب اليوم خير مما كنا ننتجه في

أول القرن ، ولكنني على ذلك مؤمن بأنه بعيد كل البعد عن أن يكون مرضياً ، وبأنه خليق أن ينقد في حزم وصرامة وشدة ، وأن مقياس ما ينبغي للشباب من الاستعداد الحسن للانتاج القيم هو ثباتهم لهذا النقد وصبرهم عليه وانفتاحهم به ، فإذا رأيت شاباً ينقد شعره ؛ فيدع الشعر ، وينصرف عنه فاعلم انه ليس شاعراً ، وليس بينه وبين الشعر سبب لأن الشاعر حقاً لا يخيفه النقد الى هذا الحد ، ولا يسرع اليه اليأس على هذا النحو ؛ وشيطات الشعر أشد سلطاناً على نفسه وأكثر امتلاً كالقلبه من أن يخيفه ناقد مهما يكن ، أو يرده هت الشعر نقد مهما يكن عنيفاً ، ثقيلاً ، ليس على الشعراء الجيدين بأس لا من ظلم النقد ، ولا من انصافهم فهم شعراء وهم ماضون في سبيل الشعر ، وهم منتهون الى حظهم من الاجادة مهما تكثرت امامهم الصعوبات واوكالات اني لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجي يملن زهده في الشعر لأنني قدرت أن الدكتور ناجي أن كان شاعراً حقاً فسيعود الى الشعر راضياً أو كارها سواء ألححت عليه في النقد أو رفقت به ، وأن لم يكن شاعراً فليس على الشعر بأس في أن ينصرف عنه ، ويزهده فيه وأنا منتظر أن يعود الدكتور ناجي الى جنة الشعر ، فاني أرى فيه استعداداً لا بأس به ، وأظنه أن عني بشعره واستكمل أدوات الفن خليقاً أن يبلغ منه شيئاً حسناً . لا يجوز إذن ياسيدي من النقد ولا تظن أن عمل الناقد يجب أن يكون البناء دائماً فقد يكون مبنياً

الخير أن تهدم بعض الابنية التي تهجب الضوء والهواء عن ابنية أخرى
 هي أحق بالبقاء ، ، وليس عمل البستاني غرساً للازهار والاشجار
 دائماً وإنما بعض عمله فيما أظن اقتلاع لبعض الاشجار ولبعض الاعشاب
 التي تفسد ما هو احق منها بالبقاء ، وأجدر منها بالنماء ، وأقدر منها على
 أن ينفع الناس .

ولست أدري لم يكون البستاني مصلحاً حين يجتث الشجرة
 الفاسدة أو يقتلع الاعشاب المهلكة لما حولها ويكون الناقد مفسداً حين
 يرد عن الادب قوما يدخلون في الادب ؛ وليسوا منه في شيء ،
 ولست ادري لم يكون البستاني مصلحاً حين يشذب بعض الاشجار
 ويقص بعض الاغصان ، وينزع بعض الورق ، ويكون الناقد مفسداً
 حين يهذب ما ينتجه الكتات والشعراء .

كلا يامسيدي ، ليس علي الادب بأس من النقد مهما يقسو
 ويشدد ، وإنما البأس كل البأس علي الادب من النقد اذا هان ولان
 واصبح تقريظاً وثناءً واثارة للفرور وتشجيعاً للمدخلاء والادب الذي لا
 يثبت للنقد العنيف لا يستحق أن يكون أدباً ، ولا يستحق أن يعنى
 به أحد ، أرأيت اني أحسن منك ظناً بالادب والادباء وأجمل منك
 رأياً في الثقافة والمنتقنين أرى أدباؤنا رجالاً يستحقون النقد وتراهم أنت
 اطفالاً لا يستحقون المداعبة .. هون عليك فأما الزبد فيذهب جفاء
 وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، ولقد عمد نقاد قساة غلاظ

مصرفون في المنف الى بعض الشعراء والكتّاب فالحوا عليهم في
النقد واشبعوهم تجريحا ؛ وطعنا ولكن الادباء مع ذلك ظفروا بالبقاء ،
وذهب نقد النقاد هباء ، فمن كان من ادبائنا خليقا ان يبقى و ينتج
وينفع الناس فليس عايبه بأس منك ، ولا مني ؛ ولا من غيرنا ، ولعله
أن يظفر من الحياة والخلود ؛ الا نظفر نحن منه بالقليل

اما بعد فاني اشكر لك ياسيدي ثناءك علي وحسن ظنك بي
وأترك احكامك كلها علي كتابنا وأدبائنا ، لك لا اجادلك فيها ،
ولا احاورك لان جدالك فيها ينتهي الي كثير جدا مما لا تريد

طه حسين

